

الغنى والفقر

الدكتور طلعت عفيفي

يقول رب العزة: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ (الكهف: ٤٦) وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (آل عمران: ١٤)

ويقول سبحانه: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعباب ألیم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

ويقول عز وجل: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون﴾ (سبا: ٣٥-٣٧).

١ - لا ينكر أحد ما للمال من أهمية تلقى بظلالها على حياة الأفراد والمجتمعات، فضرورات الفرد وكمالياته لا تتم الا بالمال وشئون الجماعة المختلفة لا تقوم الا عليه، ولذا قيل: "المال عصب الحياة" وقال الشاعر:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم

لم يبن ملك على جهل وإقلال

ويقول التابعى الجليل سعيد بن المسيب رضى الله عنه: "لا خير فيمن لا يعنى بالمال، يقضى به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه".

وعلى مستوى الشعوب فطنت بعض الفئات - وعلى رأسهم اليهود - إلى أهمية المال فى تحقيق السيطرة والهيمنة على الآخرين، فعملوا على أن تكون لهم اليد الطولى على بقية

الشعوب فى امتلاكه .

ومما يذكر فى هذا المجال قول ماركس فيلسوف الشيوعية: "إن اليهودى الذى لا يحسب له حساب فى فيينا (عاصمة النمسا) هو الذى يقرر بقوة المال مصير النمسا كلها، واليهودى الذى يكون فى أصغر الولايات الألمانية محروما من الحقوق هو الذى يقرر مصير أوروبا بأجمعها".

٢ - وإذا كانت للمال كل هذه الأهمية فليس بغريب أن يحتفى الاسلام به، وهو الدين الذى ينشد القوة والعزة لأتباعه يقول رب العزة - مشيرا الى أهمية المال -: ﴿ولا توتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾ (النساء: ٥) أي: لا يحصل قيامكم ولا معاشكم الا به.

ويقول تعالى مشيرا الى أن المال أساس فى التمتع بزينة الدنيا التى أتاحتها لنا بشرط عدم طغيانها على العمل للآخرة: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ (الكهف: ٤٦) وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (آل عمران: ١٤) وقد قال ربنا فى آية أخرى فى شأن الزينة: ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ (الأعراف: ٣٢).

بل يصل احتفاء الاسلام بالمال أن الله تعالى جعله مظهرا من مظاهر امتنانه على خلقه، ييسر لهم الحصول عليه، والبركة فيه إن هم أطاعوه، فيقول تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وفى الحديث الذى رواه البخارى وغيره "من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه".

ومن هنا تسقط كل الدعاوى التى تزعم بأن الاسلام يكره المال، سواء قالها مسلم جاهل، أم كافر مغرض ليبعد المسلمين عن دوائر المال فتسهل سيطرة أعدائهم عليهم.

٣ - والمتأمل في حياة أصحاب النبي ﷺ يجد كثيرين منهم كانوا أغنياء، وأنهم وظفوا ثرواتهم لخدمة دين الله تعالى، فنالوا بذلك سعادة الدنيا وكرامة الآخرة، ومن هؤلاء الصحابة أبوبكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وغيرهم.

يقول الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري: "دعوى أن جمهور الصحابة كانوا على التقلل والزهد ممنوعة بالمشهور من أحوالهم، فإنهم كانوا على قسمين بعد أن فتحت عليهم الفتوح، فمنهم من أبقي ما بيده من التقرب إلى ربه بالبر والصلة والمواساة مع الاتصاف بغنى النفس، ومنهم من استمر على ما كان عليه قبل ذلك، فكان لا يبقى شيئاً مما فتح عليه به، وهو قليل بالنسبة للطائفة الأخرى، ومن تبحر في سير السلف علم صحة ذلك، فأخبارهم في ذلك لا تحصى".

٤ - فإن أقبل العبد على اكتساب المال، وأدى حق الله عليه فيه، وقام بصرفه في وجوه الخير المشروعة، فهذا فضل يذكر لله تعالى فيشكر، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد: "نعم المال الصالح للرجل الصالح". وقد رغب الاسلام في كثير من الآيات في استثمار المال للتجارة به مع الله، وبيان أن هذا طريق المؤمنين المؤدي بهم إلى الفوز في الدنيا والفلاح في الآخرة.

يقول رب العزة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (التوبة: ١١١)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيُزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٢٩-٣٠).

وقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تَوَّمنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ

الفوز العظيم ﴿(الصف: ٩-١٢)﴾

٥ - أما إذا تحول المال لدى صاحبه الى هدف يقصد لذاته، وانكبَّ على جمعه دون رعاية لله في مصدره ومصرفه، واحتبسه دون أن يؤدي حقوق الله فيه فهذا داء وبيل، وشر مستطير.

يقول رب العزة: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥)

وفي الحديث الذى رواه الشيخان: "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان (أى ثعبانا كثير السم له نكتتان سوداوان فوق عينيه، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه (يعنى شذقيه) ثم يقول: أنا كنزك، أنا مالك، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ (آل عمران: ١٨٠)

٦ - وتعلمنا السنة أن كثرة المال أو قلته ليست هى المقياس الذى يحكم به على الشخص بأنه غنى أو فقير، ففى الحديث الذى رواه الشيخان: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس".

وفى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه: "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فىنا من لا درهم له ولا متاع، فقال: "إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار".

وكلا الحديثين يتناول الغنى والفقر بعيدا عما تعارف عليه الناس من النظر إلى كثرة المال أو قلته، ويجعل المحك الحقيقى هو السمو بالنفس إلى معالى الأمور، والدفع بها عن دنايها.

٧ - ومن هنا عاب الله تعالى على من ارتكن الى كثرة ماله، وحسب أنه سبيل عزته وكرامته.

يقول تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه كلا

لينبذن في الحطمة ﴿ (الهمزة: ١-٤) .

وقال تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا انه كان لآياتنا عنيدا﴾ (المدثر: ١١-١٦)
وقال سبحانه: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون﴾ (سبأ: ٣٥-٣٧).

٨ - إن الرضا بما قسم الله، والتطلع الى ما لديه من ثواب فى الآخرة هو الغنى الحقيقى، أما التنافس على الدنيا والتطلع إلى تحصيل المزيد منها فهذا هو الفقر بعينه، وإن جمع صاحبه من المال مثل ما جمع قارون.

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه: (طريق الهجرتين، وباب السعادتين): "الغنى قسمان: غنى سافل وغنى عال، فالغنى السافل الغنى بالعوارى المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وهذا أضعف الغنى، فإنه غنى بظل زائل، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها، وكأن الغنى بها كان صالحا فانقضى، ولا همة أضعف من همة من رضى بهذا الغنى الذى هو ظل زائل، وهذا غنى أرباب الدنيا الذى فيه يتنافسون، وإياه يطلبون، وحوله يحومون.

والغنى العالى هو الغنى بالله تعالى، فإن الغنى انما يصير غنيا بحصول ما يسد فاقتة، ويدفع حاجته، وفى القلب فاقة عظيمة وحاجة شديدة لا يسدها الا فوزه بحصول الغنى الحميد، الذى إن حصل للعبد حصل له كل شىء وإن فاته فاته كل شىء، فكما أنه سبحانه الغنى على الحقيقة - ولا غنى سواه - فالغنى به هو الغنى فى الحقيقة، ولا غنى بغيره البتة أ. هـ بتصرف، وقال أيضا: إن فى القلب فاقة لا يسدها الا محبة الله والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها، لم تسد تلك الفاقة أبدا".

(مع الشكر لمجلة التبليان المصرية)

